الجزائريون والجامع الأزهر

ـ الانتمــاء والأثـــر ـ

الأستاذ الدكتور مرزوق العمري

أستاذ العقيدة والفلسفة الإسلامية

كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة باتنة -1-

مقدمة: التواصل الجزائري المصري ظاهرة قديمة تعززت بشكل خاص بعد مجيء الإسلام الذي أشاد رابطة الدين وجعلها من أوثق الروابط، وحفاظا على هذه الرابطة تأسست المؤسسات التي خدمت الرابطة الدينية وحافظت عليها، وفي صدارة هذه المؤسسات الجامع الأزهر. و الجامع الأزهر مؤسسة إسلامية عريقة من المؤسسات الإسلامية ذات الصيت الواسع والمكانة العالية في نفوس كل المسلمين، ولمكانته ظل يؤمه المسلمون من كل أنحاء العالم الإسلامي لطلب العلم ومجالسة العلماء ولشرف الانتماء إليه، حتى صار طلبته وخريجوه يضرب بهم المثل في العلم الشرعي ويقدمون في كل المنابر العلمية والدينية في بلادهم، وكما كان هذا الأمر شأن المسلمين عموما كان شأن الجزائريين على وجه الخصوص؛ إذ حفظت لنا كتب تراجم الأعلام الجزائريين رحلاتهم إلى مصر وانتسابهم إلى الجامع الأزهر فكانوا من طلبته وتحصلوا منه على شهادات في العلوم الشرعية وبذلك كان لهم شرف الانتماء إلى هذه المؤسسة الإسلامية العريقة، كما أنهم انخرطوا في الحركة العلمية هناك وحتى بعد عودتهم إلى الجزائر وتركوا أثرهم وبصمتهم فصاروا معلمين وأساتذة في الجامع الأزهر، وفي بلادهم بعد العودة إليها، ومنهم من آلت إليه مشيخته مثل الشيخ محمد الخضر حسين الذي صار أحد شيوخ الجامع الأزهر خلال عقد الخمسينيات، ومنهم من اشتغل بالتأليف والكتابة وترك أثرا أزهريا جزائريا مثل يحي الشاوي المليانى صاحب التآليف المتميزة في علم العقيدة، ومنهم أيضا علي بن محمد الميلي صاحب التآليف الكثيرة أيضا.

وعليه فهذا الموضوع يكتسي أهمية خاصة كونه من جهة يبرز لنا التفاعل الجزائري/ المصري كنموذج إسلامي/ إسلامي، وهذا التفاعل في فضاء ديني كان محضنه الجامع الأزهر باعتباره مؤسسة تعليمية وإسلامية عالمية، ومن جهة أخرى يبرز لنا الأثر الذي أحدثه هذا الإنتماء الأزهري للجزائريين كانخراطهم في حركة الكتابة والتأليف فتركوا لنا كتبا كثيرة في مختلف العلوم الشرعية وفي حقب زمنية مختلفة، كما انخرطوا في العمل الدعوي فاشتغلوا بالدعوة ممارسة وتنظيرا فنظروا لها وعملوا على رسم سبل نجاحها وانتشارها، بالإضافة إلى انخراطهم في العملية التعليمية وهي التي استثمرتها حركات الإصلاح الديني الحديثة في بناء التصور الإسلامي ومجابهة الاستعمار الحديث الذي تعرضت له البلاد الإسلامية.

وعليه تسعى هذه الورقة إلى تتبع انتماء الجزائريين إلى الجامع الأزهر ، وأثرهم في حركة التعليم فيه ، وانخراطهم في حركة الكتابة ف والعمل الدعوي الذي أسسوا له معرفيا بما يثبت

التفاعل الجزائري المصري في الفضاء الديني الأزهري. وبناء على ذلك يمكن صياغة إشكالية هذه الدراسة في التساؤ التالي: هل انتسب الجزائريون إلى الجامع الأزهر وكانوا من طلبته ومتعلميه؟ وإن ثبت ذلك فمن هم أشهر الجزائريين الذين انتموا إلى الجامع الأزهر؟ وما هو الأثر الديني والمعرفي الذي أحدثه هذا الإنتماء؟.

وقد اقتضت هذه الإشكالية تتبع سير بعض العلماء الجزائريين الذي ثبت انتماؤهم إلى الجامع الأزهر فتم التعريف بهم ومن ثم الوقوف على طبيعة هذا الإنتماء الأزهري، وعلى آثارهم التي هي آثار انبت على العملية التكوينية الأزهرية.

أولا

الانتماء الأزهري للجزائريين

حينما نتحدث عن الانتماء الأزهري للجزائريين ، نجد أنفسنا عند المبدأ ؛ إذ تأسيس هذه المؤسسة العلمية الدينية في حد ذاته هو تأسيس جزائري، ارتبط بتأسيس مدينة القاهرة التي كانت قبل ذلك الفسطاط، كان ذلك على يد المعز لدين الله الفاطمي وهو جزائري. ثم كان المسار الناجح للجامع الأزهر كبير الأثر في نفوس المسلمين من أقطار الإسلام المختلفة، الأمر الذي جعل منه قبلة يؤمها أبناء العالم الإسلامي من كل مكان منهم الجزائيون منذ تأسيسه حتى عصرنا هذا، وقد حفظ لنا تاريخ الأعلام أسماء لطلبة جزائريين ارتبوا بالجامع الأزهر وصاروا من منتسبيه وتركوا إرثا علميا وساهموا في الحركة الدعوية في زمنهم ويمكننا أن نقف على نماذج من الطلبة الجزائريين في رحلتهم الأزهرية وانتمائهم إلى الجامع الأزهر منهم:

1- يحي الشاوي المليانى: هو يحي بن محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى أبو زكريا الشاوي المليانى الجزائري المالكي. هكذا عرف به أبو القاسم الحفناوي[1] ، فاسمه يحي الشاوي، والشاوي اسما وليس نسبا، ويكنى بأبي زكريا، والمليانى نسبة إلى مدينة مليانة إحدى مدن الغرب الجزائري وهي إحدى دوائر ولاية عين الدفلى في التقسيم الإداري الحالي للجزائر، أما النائلي فهي نسبة إلى قبيلته أولاد نايل، يدل ذلك على أنه ليس من مليانة وإنما هو من الوافدين إليها .

أما مولده فقد اختلف فيه زمانا ومكانا؛ فنجد بعض الذين ترجموا له يذكرون أنه من مواليد سنة1030هـ كما ورد ذلك في معجم أعلام الجزائر[2] ويكاد يكون الكتاب الوحيد الذي ذكر فيه تاريخ ميلاده على الرغم من وجود كتب كثيرة ترجمت له،

---

[1]- أبو القاسم الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، سلسلة الأنيس للعلوم الإنسانية، الجزائر 1991م، ج1، ص221.

[2]- عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية للتاليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2- 1980م، ص186.

لكنها كانت تركز على نشأته وآثاره وبلده وتاريخ وفاته دونما الإشارة إلى تاريخ ميلاده، لذلك نجد الدكتور أبو القاسم سعد الله يشير إلى أن تاريخ ميلاده لم يعرف بالضبط واكتفى بالإشارة إلى أنه لا يخرج عن أوائل القرن الحادي عشر[1].

كما نجد الخلاف أيضا في مكان ولادته أهو مدينة الجزائر أم مدينة مليانة التي ينسب إليها ؟ ففي معجم أعلام الجزائر نجد مكان ميلاده هو مدينة الجزائر، وهو الرأي الذي ذهب إليه الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف[2]. بينما في فهرس الفهارس وفي الأعلام للزركلي يحدد مكان ميلاده على أنه مدينة مليانة و ليس مدينة الجزائر، وهو الرأي الذي أخذ به الدكتور أبو القاسم سعد الله في ترجمته له[3]. و رغم الاختلاف في تحديد وضبط زمان ومكان ميلاده إلا أن تاريخ وفاته كان متفق عليه وهو سنة 1096هـ وهو التاريخ الذي ذكره كل الذين ترجموا له.

ويبدو أن أول العوامل التي ساعدت الشيخ يحي الشاوي على النبوغ بعد مؤهلاته الفطرية محيطه الأسري، فقد كان أبوه من أهل العلم الصالحين، وهذا ما يستفاد خاصة من ترجمة الحفناوي له فقد ذكر والده حينما قال:" يحي بن الفقيه الصالح محمد ين محمد بن عبد الله" كما ذكر أبوه بأنه فقيه أيضا في فهرس الفهارس[4].

وإن لم يذكر مترجموه أنه تتلمذ على يد والده فعادة ما يبدأ أبناء الفقهاء تعليمهم في أسرهم فلا يستبعد إذا أن يكون يحي الشاوي كانت بدايته التعليمية في أسرته. من جهة أخرى نجد الخلاف أيضا في نشأته وتعليمه؛ فهناك من ذهب إلى أنه درس في الجزائر وهذا ما ذهب إليه الحفناوي إذ ربط مولده بدراسته فقال:" ولد بمدينة الجزائر وقرأ بها وبمليانة"[5] .

ويفهم من هذا أنه ولد بمدينة الجزائر، أما تعلمه فكانت بدايته بالجزائر ثم بمليانة بعد ذلك. أما الذين قالوا أنه ولد بمدينة مليانة ذهبوا إلى أن تعليمه كان بمسقط رأسه مدينة مليانة على الطريقة المتبعة وقتئذ في الكتاتيب من حفظ القرآن الكريم، وحثظ المتون وبدايات العلوم، وهو النمط السائد في الزوايا، ويرجح الدكتور أبو القاسم

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2 1985م، ج2، ص108م.

[2]- الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص 222.

[3] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 108.

[4] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 108.

[5]- الحفناوي: تعريف الخلف، ج1، ص، 222.

سعد الله أن الشاوي كانت بداية تعليمه في زاوية أبهلول المجاجي قرب مدينة تنس وهي الزاوية التي كان أهل تلك النواحي ومنهم أهل مليانة يقصدونها للدراسة الثانوية قبل الانتقال إلى أماكن أخرى لمواصلة المسار العلمي، وعادة ما تكون وجهتهم الحواضر العلمية كمدينة الجزائر أو تلمسان أو بجاية، وهناك من يرحل خارج الجزائر خاصة إلى فاس بالمغرب أو إلى تونس أو إلى مصر والحجاز وغيرها من أقطار الإسلام التي اشتهرت بالعلم. أما زاوية أبهلول المجاجي فقد كانت مقصد أغلب طلاب العلم خاصة الذين كانوا من المناطق القريبة منها لشهرتها في المنطقة بطلابها وعلمائها[1].

ومن خلال هذا يبدو أن نشأته كانت بمدينة مليانة ولم ينتقل إلى مدينة الجزائر إلا بعدما أنهى دراسته من زاوية المجاجي؛ أي بعدما أنهى المرحلة الثانوية من دراسته مما يدل على أن نشأته كانت بمدينة مليانة كما أن تعليمه أيضا كان بنفس المدينة. وهناك رأي آخر ذهب أصحابه إلى أن الشيخ يحي الشاوي ولد بمليانة أما تعلمه فقد كان بمدينة الجزائر؛ أي أنه بعد ميلاده انتقل إلى الجزائر وهو الراي الذي ذهب إليه صاحب فهرس الفهارس[2].

من خلال هذه الآراء الثلاثة بخصوص نشأته يبدو أن الراجح ما ذهب إليه الدكتور أبو القاسم سعد الله لعدة اعتبارات منها:

1- أنه درس على يد الشيخ محمد بن محمد أبهلول، وكان ذلك بزاوية أبهلول المجاجي وهي بمنطقة مليانة وليست في مدينة الجزائر.

2 ـ طبيعة الدراسة التي كانت في تلك الزاوية،، فهي مخصصة للدراسة الثانوية، ومادام بقي بها حتى بلغ هذه المرحلة من الدراسة، فهذ مما يؤكد أن نشأته كانت في مدينة مليانة وليس بمدينة الجزائر.

أما تعليمه فقد كانت بدايته في مسقط رأسه مدينة مليانة كما سبقت الإشارة إلى ذلك في زاوية أبهلول المجاجي ثم رحل بعد ذلك إلى تلمسان ليكمل تعليمه بها وعلى يد مشايخها، وإن كان الذين ترجموا له لم يذكروا رحلته إلى تلمسان عدا الدكتور أبو القاسم سعد الله وما يؤكد هذه الرحلة تتلمذه على يد سعيد المقري شيخ تلمسان في زمانه[3]. مما يدل على رحلته إليها. ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة الجزائر والتقى

---

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص 108.

[2]- الكتاني: فهرس الفهارس، ج2، ص 1132م، وانظر أيضا الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان،، ط7 ماي 1986م،ج8، ص169.

[3]- هو أبو عثمان سعيد بن أحمد المقري، مفتي تلمسان في زمانه، أنظر الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج2، ص 326.

بعلمائها وتتلمذ على أبرزهم في ذلك الوقت وأخذ عنهم العلوم التي كانت تدرس وقتها وهي العلوم الشرعية بالدرجة الأولى كالفقه والتوحيد والتفسير والحديث والنحو كما درس المنطق أيضا.

وقد تلقى هذه العلوم على يد ألمع علماء الجزائر في ذلك الوقت مثل: علي بن عبد الواحد الأنصاري[1]. سعيد قدورة[2]. وعيسى الثعالبي[3]. وكانوا جميعا من العلماء البارزين؛ فالأنصاري اشتهر بجمعه الكثير من العلوم وكان يجمع علوم الظاهر بعلوم التصوف، ويشبهه في ذلك سعيد قدورة، واشتهر عيسى الثعالبي برسوخه في علوم الشريعة بالإضافة إلى علوم أخرى كالطب والحساب والتاريخ والأدب.

درس يحي الشاوي على يد هؤلاء العلماء وأفاد منهم وأجازوه ، وروى عنهم الحديث والفقه وغيرهما من العلوم كما روى كتب الشيخ السنوسي وحزب البحر لأبي الحسن الشاذلي في التصوف، وذكر صاحب فهرس الفهارس سند الرواية عن السنوسي، والسند الذي اعتمده في رواية حزب البحر[4]. وقبل أن يرحل الشيخ يحي الشاوي إلى المشرق تولى التدريس بمدينة الجزائر، وقد أشار مترجموه إلى ذلك، فقد أورد الحفناوي أنه تصدر للإفادة ببلده[5]. كما ذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله أنه تصدر للتدريس بمدينة الجزائر، وهذا خاصة بعدما توفي الأنصاري وهاجر عيسى العالبي[6].

وقد كانت هجرة عيسى الثعالبي إلى الحجاز سنة 1061هـ، وكانت وفاة الأنصاري سنة 1057هـ، أما يحي الشاوي فقد كانت هجرته هو الآخر سنة 1074هـ فإن كان تصدره للتدريس بدأ بعد وفاة الأنصاري فهذا يعني مكث 17 سنة مدرسا بمدينة الجزائر، وإن كان بعد هجرة عيسى الثعالبي فقد استمر تدريسه بمدينة الجزائر 13 سنة. وفي الحالتين هي مدة معتبرة يستبعد أنه لم يُكَوِّن فيها تلاميذ ، ولكن الذين ترجموا له لم يذكروا من اشتهر من تلاميذه بالجزائر وذكروا المحبي الذي لازمه خلال إقامته في دمشق وقد كان أحد تلاميذته البارزين بل هو من كتب خلاصة الأثر التي ترجم له فيها، مما يدل على أن هناك حلقة مفقودة في سيرته خلال إقامته في مدينة الجزائر خاصة، وهذا يدل على أن سيرته لم تلق العناية الكافية من

---

[1]- هو علي بن عبد الواحد ين محمد الأنصاري السجلماسي، كانت له رحلات إلى فاس والحجاز واستقر في الجزائر وتفي عام 1054هـ له تأليف منها شرح على الأجرومية، أنظر تعرف الخلف للحفناوي، ج1، ص71.

[2]- هو أبو عثمان سعيد بن ابراهيم قدورة، مفتي الجزائر في زمانه، توفي سنة 1066هـ.

[3]- هو أبو مهدي عيسى بن محمد بن أحمد بن عامر الثعالبي ، تولى التدريس في الجزائر ، نزيل مكة المكرمة، توفي سنة 1080هـ، انظر تعريف الخلف للحفناوي، ج1، ص89 وما بعدها.

[4]- الكتاني: فهرس الفهارس، ج2، ص1132.

[5] - الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص222.

[6]- الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ج1، ص222.

البحث والدراسة، وما يؤكد ذلك أن آثاره وكتبه لا تزال مخطوطة وما تزال مجهولة حتى لدى الباحثين المتخصصين في الدراسات الإسلامية.

ـ رحلته إلى المشرق وانتماءه إلى الأزهر: في سنة 1074هـ رحل الشيخ يحي الشاوي إلى المشرق مقتفيا في ذلك أثر شيخه عيسى الثعالبي الذي هاجر سنة 1061هـ، وذهب معظم مترجميه إلى أن الغرض من تلك الرحلة هو أداء فريضة الحج عدا الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي ذهب إلى أن هدف تلك الرحلة هدف مزدوج فمن جهة أداء فريضة الحج، ومن جهة ثانية طلب العلم وهو السبب الأول في نظره [1].

اتجه يحي الشاوي إلى الحجاز مباشرة، وبعد أدائه فريضة الحج لم يعد إلى الجزائر بل إلى مصر فأقام بالقاهرة والتحق بالجامع الأزهر وصار من منتسبيه فأخذ عن مشايخه وأجازوه، وبقي يتردد على مصر وعلى الجامع الأزهر إلى أن توفاه الله وكانت وفاته على ظهر سفينة تقله في مياه البحر الأحمر متجها إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج، وكان ذلك يوم الثلاثاء ربيع الأول سنة 1096هـ، ودفن في مكان يقال له رأس أبي محمد، ثم لما بلغ الخبر إبنه الشيخ عيسى نقله إلى مصر، ودفن بالقرافة بمقبرة السادة المالكية [2].

2ـ الشيخ المولود بن الموهوب الزريبي: هو محمد المولود بن محمد السعيد بن الشيخ المدني بن العربي بن مسعود بن عبد الوهاب سليل أبي عبد الله البركة الموهوب عمر الزريبي أحد وجهاء قرية زريبة الوادي في شرق بسكرة[3]، في هذه القرية ولد ونشأ وترعرع، وكان مولده سنة 1866م[4]، وقد اختلف الذين ترجموا له في تاريخ ومكان ميلاده بشكل ملفت للانتباه؛ ففي معجم أعلام الجزائر لعادل نويهض كان مولده سنة 1897م[5]، ويبدو أنه المعجم الذي أخذ عنه خير الدين شترة في معجمه معجم أعلام الجزائر من خريجي الجامع الأعظم كما أنه أشار إلى التحاقه

---

[1]ـ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص110.

[2]ـ المرجع نفسه، ص225/224.

[3] ـ محمد الصالح الصديق: أعلام من المغرب العربي، موفم للنشر، الجزائر (2008م)، ج1، ص71.

[4]ـ محمد الصالح الصديق: أعلام من المغرب العربي، موفم للنشر، الجزائر (2008م)، ص84.

[5] ـ عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر،مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت بلنان،ط2 (1400هـ/1980م) ص158.

بالزيتونة دون غيره ممن ترجموا له[1]، ويبدو أن التاريخ الصحيح لميلاده هو سنة 1866م؛ ففي تراجم الشيخ المجاوي يذكر أن الشيخ المولود هو الذي أبَّنهُ رفقة ابن باديس، ووفاة الشيخ المجاوي كانت سنة 1914م فإذا اعتمد التاريخ الأول يعني هذا أن عمره كان يومها 17 سنة وذلك بعيد. كما أنه إذا اعتمد هذا التاريخ يعني هذا أنه أقل سنا من ابن باديس فابن باديس ولد سنة 1889م وبالتالي يكون أكبر سنا من الشيخ المولود بـ 16 سنة، وهذا غير صحيح بدليل أن ابن باديس بعد عودته من الحجاز ومحالة إقدامه على الخطابة والتدريس منعه الشيخ المولود لصغر سنه في نظره.

كما أن الخلاف وقع في مكان ميلاده بين قسنطينة وزريبة الوادي ببسكرة، فذهب الشيخ محمد الصالح الصديق إلى أن مسقط رأسه هو زريبة الوادي وكذا عادل نويهض في معجم أعلام الجزائر، وخير الدين شترة في معجم أعلام الجزائر من خريجي الجامع الأعظم، بينما نجد مسقط رأسه هو مدينة قسنطينة في كتاب المفتي القسنطيني. والراجح أنه من مواليد زريبة الوادي ولكنه نزيل قسنطينة التي تعلم وعلم بها ثم صار مفتيها، إلى أن توفي ودفن بها.

ترعرع المولود الصبي في بيت والديه في قرية زريبة الوادي وما إن بلغ سن التمييز حتى أدخله أبوه إلى الكتاب القرآني، وقد تميز عن أقرانه بقوة الحافظة، وبحضور البديهة والنشاط والحيوية، ففي ظرف وجيز أتم حفظ القرآن حفظا جيدا فلفت الأنظار وصار يتوسم فيه أنه يعد بمستقبل علمي مشرق[2]، ثم انتقل إلى الزاوية الحفناوية بقرية بليانة فتعلم بها المبادئ الأساسية للعلوم العربية والإسلامية وكان من شيوخه فيها الشيخ عمار بن سعيد الذي حفظ عل يديه القرآن الكريم والشيخ حامد العبيدي

[1] ـ خير الدين شترة: معجم أعلام الجزائر من خريجي الجامع الأعظم، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف ـ الجزائر ـ ط1(2015م)، ج2، ص161.

[2]. ـ محمد الصالح الصديق: أعلام من المغرب العربي، ج2، ص71

الذي أخذ عنه العلوم العربية والإسلامية [1]، ولكنه لم يرض باليتوقف عند ذلك المستوى، وكان يسمع في مختلف المناسبات عن العلماء الذين كانوا يرحلون في طلب العلم فتاقت نفسه لأن يقوم برحلة لأجل العلم وهذا الذي كان له بعد ذلك إذ رحل إلى مصر من أجل الالتحاق بالجامع الأزهر.

ـ رحلته إلى مصر وانتماءه إلى الجامع الأزهر: لم تكن رحلته إلى مصر، رحلة عادية، بل كانت مغامرة خفية، فلم يعلم أحد بسفره لا أسرته ولا أهله ولا أقرانه، وهذا مما يدل على رغبة الطلبة الجزائريين في الانتماء الأزهري في ذلك الوقت، وبعد ذهابه شاع أمر اختفائه ونالت الحيرة من الأهل وخاصة والديه، وبعد فترة جاء نبأ الإبن بأنه في مصر فغضب الوالد غضبا شديدا وعز عليه كيف يسافر ابنه دون إذنه فأقسم أن لا يمده بشيء ولا يعطف عليه، ولما بلغ الإبن نبأ الموقف الذي اتخذه أبوه اسودت الدنيا في وجهه لما بلغه من نبأ غضب الوالد عنه بسبب سفره الخفي دون إذنٍ. ولكنه تناسى الأمر بعد ذلك واستأنف دراسته وأرسل رسالة إلى والده جاء فيها:" إني استأنفت قراءتي وهيهات التولي عن طلبي وأنت الأب الجدير بكل إكبار واحترام وحسبي أن أذكرك في الناس أبا رحيما فإن لم ترحمني لأكونن من الهالكين"[2]

ببلوغ هذه الرسالة يد الوالد تغير موقفه ورقت نفسه وعطف على ولده الشجاع الذي خاض هذه المغامرة فاطمأن الإبن وتحدد الهدف نصب عينيه وازداد عزمه وظل مجتهدا حتى نال العالمية[3]. وخلال مساره الأزهري تتلمذ على يد علماء كبار مثل الشيخ بخيت المطيعي، ومحمود الخطاب، والشيخ حسن البحيري، وقد نال إعجابهم وهو بدوره تأثر بهم كثيرا فظل يستشهد بهم في مواقفه الإصلاحية. وبعد عمل مثمر

---

[1]ـ المرجع نفسه، ص74.

[2] ـ محمد الهادي السنوسي: شعراء الجزائر في العصر الحديث نقلا عن الشيخ محمد الصالح الصديق: أعلام من المغرب العربي، ج2، ص73

[3]ـ المرجع نفسه، ص74.

وجهد كبير توفي الشيخ المولود في 20 أفريل 1939م بمدينة قسنطينة ودفن بها، وهذا خلاف ما قاله عادل نويهض أنه مات في بوفاريك بالبليدة.

3. محمد الخضر حسين: هوالشيخ هو محمد الأخضر بن الحسين بن علي بن عمر، هذا هو إسمه الأصلي وواضح من اسمه أنه ليس بمشرقي بل هو جزائري الأصل، لمّا قدم إلى المشرق حذف «بن» من اسمه على الطريقة المشرقية، وغلب عليه الخضر عوضًا عن الأخضر فصار محمد الخضر حسين[1].

قبل ميلاده رحلت أسرته إلى تونس وفيها ولد الشيخ محمد الخضر تحديدا في مدينة نفطة يوم 26 رجب سنة 1293هـ /16 أغسطس 1876 م ..ينتسب الشيخ محمد الخضر إلى أسرة جزائرية الأصل من قرية طولقة بولاية بسكرة جنوب شرق الجزائر[2]، ويذكر مترجموه أن أسرته أسرة علم وأدب من جهتي الأب والأم على حد سواء، ولد الشيخ في نفطة بجنوب تونس تلك المدينة التي تعد من المدن العلمية في التاريخ الإسلامي عموما والمغربي والتونسي على وجه الخصوص حتى عرفت بالكوفة الصغرى[3].

نشأ الشيخ في هذه البيئة العلمية طالبًا للعلم فحفظ القرآن، ودرس علوم الشريعة وعلوم اللغة على يد عدد من العلماء منهم خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز الذي كان يرعاه ويهتم به، ومنذ صباه تميز الشيخ بشغفه العلمي واللغوي؛ إذ كان يحاول قرض الشعر، ثم برع فيه في سن النضج. ببلوغة سن الثالثة عشرة انتقل إلى مدينة تونس مع أسرته والتحق بجامع الزيتونة و درس على يد مشايخه البارزين منهم خاله محمد المكي بن عزوز الذي كانت له شهرة كبيرة بالجامع، ومنهم الشيخ سالم بوحاجب الذي كان من أعمدة الإصلاح في تونس، درس على يده صحيح البخاري، وقد تخرج الشيخ من الزيتونة سنة 1316هـ/1898م، وألقى دروسًا في الزيتونة في فنون مختلفة متطوعًا، وبقي كذلك مع حضور مجالس العلم والأدب المختلفة[4]

مما عرف عن الشيخ بعد ذلك أنه قام بعدة رحلات، لاشك أنها ساهمت في صناعة مساره الفكري في مرحلة لاحقة؛ فرحل الشيخ في أول أمره إلى الشرق سنة 1313هـ وما كاد يصل إلى طرابلس الغرب في ليبيا ويستقر بها حتى عاد إلى تونس فلازم جامع الزيتونة، وفي شهر محرم سنة 1322 هـ/أبريل 1904 م أنشأ مجلة" **السعادة العظمى"**، وهي أول مجلة عربية ظهرت في تونس، وكانت مجلة

---

[1] ـ محمد بن إبراهيم الحمد، الشيخ محمد الخضر حسين سيرته ومؤلفاته، دار ابن خزيمة، ط1 (1435هـ/2014م)، ص 29.

[2] ـ المرجع نفسه، ص31.

[3] ـ المرجع نفسه، ص 35.

[4] ـ المرجع نفسه، ص37 وما بعدها.

نصف شهرية، صدر منها21 عددًا ثم توقفت، وقد كان الشيخ يكتب أغلب مقالاتها. وهذا العمل الإعلامي كان من بواكير اهتمامه بالعمل الإصلاحي الذي صار فيما بعد أحد أعلامه. تولى الشيخ بعد ذلك القضاء في بنزرت التونسية سنة1324 هـ /1905م، كما اشتغل بالتدريس في جامعها الكبير، ثم استقال وعاد إلى تونس واشتغل بالتدريس متطوعا في جامع الزيتونة، ثم أُحيل إليه تنظيم خزائن كتب الجامع في سنة 1325 هـ. كما شارك في تأسيس الجمعية الزيتونية، وخلالها عين مدرسا رسميا بجامع الزيتونة، وقام خلال هذه الفترة بالتدريس والخطابة في الجمعية الخلدونية، فلفت الأنظار بسعة علمه[1].

كما كانت له رحلة إلى الجزائر وزار مدنها الكبرى، وألقى بها دروسا مفيدة، ثم عاد إلى تونس، وإلى التدريس بجامعها، وقد حاولت في هذه الفترة السلطات الفرنسية ضمه إلى المحكمة الفرنسية فرفض بشدة، وفي سنة 1329 هـ وجهت له تهمة روح العداء للغرب وخاصة سلطات الحماية الفرنسية (= ما يعرف الآن بخطاب الكراهية)، فأحس الشيخ بأن حياته وحريته في تونس معرضة للخطر، فكانت له رحلة أخرى إلى إسطنبول، وهي الرحلة التي بدأت بمصر ثم دمشق التي استقر بها 3 سنوات (1913م - 1916م) تعرض فيها للاضطهاد فسجنه جمال باشا الوالي العثمانى في بلاد الشام، ثم انتقل إلى إسطنبول، ثم عاد إلى تونس عن طريق نابولي الإيطالية، لكنه وجد أن الأمر ازداد تعقيدا، فأزمع الهجرة نهائيا واختار دمشق موطنا ثانيا له، وخلال رحلته مرّ بمصر والتقى بمشايخها الكبار الساكنين بها مثل: محمد رشيد رضا والشيخ محب الدين الخطيب.

حصل على عضوية هيئة كبار العلماء برسالته **القياس في اللغة العربية** سنة 1370 هـ /1950 م، ثم اختير شيخا للأزهر في 26 ذي الحجة1371 هـ 16/ سبتمبر1952 م[2]، وقد كان مستشعرا ثقل مسؤوليته الأزهرية فقد قال عنه الشيخ عبد الحليم محمود أنه كان يقول:"إن الأزهر أمانة في عنقي أسلمها حين أسلمها موفورة كاملة"[3]. واستقال من المشيخة في02جمادى الأولى 1373 هـ/ 7 يناير1954 م.احتجاجاً على إلغاء القضاء الشرعي ودمجه في القضاء المدني. وكانت وفاته في 13 رجب 1377 هـ 28/ فبراير1958 م.

---

[1]- المرجع نفسه، ص47 وما بعدها.

[2]- المرسي محمد شولح: رؤى الإصلاح عند الإمام محمد الخضر حسين، سلسلة كتاب الأمة، ، العدد 159، ص73.

[3]- الشيخ عبد الحليم محمود: الحمد لله هذه حياتي، دار المعارف، ط3،ص110.

ثانيا

الأثـــــر الأزهري للجزائريين

ساهم الانتماء الأزهري لدى الجزائريين في تمكينهم من التأثير في مسار العلوم الإسلامية ، والثقافة والحياة الإسلامية بشكل عام، وقد تجلى هذا الثر في الفضاءات التالية:

1- الأثر العلمي: وتمثل بالدرجة الأولى في مكتوبات هؤلاء الجزائريين الذين انتسبوا إلى الجامع الأزهر وساهموا في خدمة العلوم الشرعية خلال إقامتهم بمصر أو بعد عودتهم على الجزائر بالنسبة للذين عادوا إليها فمثلا:

الشيخ يحي الشاوي تنوعت آثاره العلمية تنوع المعارف الإسلامية، وتعددت بتعدد المواضيع التي تناولتها تلك المعارف، ولذلك نجده ألف في عدة فنون إسلامية شأنه في ذلك شأن شيوخه وسائر علماء الإسلام، وإن كانت معظم تآليفه في العقيدة وبسبب ذلك يصنف بأنه من علماء الكلام أكثر مما هو مفسر أو نحوي ومن تصانيفه في العقيدة:

ــ حاشية على شرح أم البراهين.- توكيد العقد فيما أخذه الله علينا من العهد.- التحف الربانية في جواب الأسئلة اللمدانية.- قرة العين في جمع البين.- فتح المنان في جواب الأسئلة الثمان.- النبل الرقيق في حلقوم الساب الزنديق.

بالإضافة إلى تآليفه في العقائد له مؤلفات أخرى في النحو منها:

ــ نظم لامية في إعراب إسم الجلالة، جمع فيها أقوال النحاة وشرحها.- مؤلف صغير في أصول النحو، قال عنه الحفناوي جعله على أسلوب الاقتراح للسيوطي، أتى فيه بكل غريبة وجعله باسم السلطان محمود، وقرظ عليه علماء تركيا ومنهم العلامة المنقاري الذي قال في تقريظه:" لا يخفى على الناقد البصير أن هذا التحرير كنسج الحرير، ما نسج على منواله ناسج في هذه العصور، تنشر بمطالعته الصدور" 30.

3- شرح التسهيل لابن مالك.

4- حاشية على شرح المرادي على ألفية بن مالك.

كما ترك كتابا في التفسير أيضا بعنوان: أجوبة على اعتراضات أبي حيان على ابن عطية والزمخشري.

ويلاحظ على هذه الآثار أنها شروح وحواشي، أو ردود ومطارحات، وقد عوتب الشيخ يحي الشاوي على ذلك؛ فقد علق الدكتور أبو القاسم سعد الله بأنه لو وجهت جهود الشيخ يحي الشاوي وقوة ذكائه وغزارة علمه إلى طرق مواضيع جديدة أو معالجة قضايا العصر لكان أنفع للأمة، ولكنها بقيت مصبوغة بصبغة العصر الذي ظهرت فيه وهو إما أن تكون نظما أو شرحا أو حاشية على شرح أو غير ذلك، وبذلك حرمت الأمة من قريحة علمية نادرة كقريحة يحي الشاوي، ولا تزال هذه الآثار العلمية لهذا الشيخ مخطوطة وذلك سر الجهل به، فلم تطبع آثاره ليتسنى للدارسين التعرف على شخصيته وعلمه، ومنزلته بين علماء الإسلام، لا تزال مخطوطة وتتوزع على مكتبات العالم الإسلامي.

ـ أما الشيخ المولود بن الموهوب فقد ترك هو الآخر أعمالا علمية كثيرة لعل الكتابة الشعرية نالت منها الحظ الأوفر، كما له شروح عديدة منها: شرح على قدسية الأخضري، شرح على كتاب البيوع على مختصر خليل، كتاب في الأخلاق، مختصر الكافي في العروض والقوافي، نظم منظومة التوحيد لشيخه المجاوي، بدور الأفهام أوشموس الأحلام. في عقائد ابن عاشر الحبر الهمام.

ـ أما الشيخ محمد الخضر حسين فقد كانت مؤلفاته متنوعة تنوع مواهبه وتنوع الفضاء المعرفي الشرعي ومن كتبه: رسائل الإصلاح، وهي في ثلاثة أجزاء، خواطر الحياة وهو ديوان شعري، بلاغة القرآن، أديان العرب قبل الإسلام، تونس وجامع الزيتونة، حياة ابن خلدون ومثل من فلسفته الاجتماعية، دراسات في العربية وتاريخها، الحرية في الإسلام، آداب الحرب في الإسلام، تعليقات على كتاب الموافقات للشاطبي، نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم، نقض كتاب في الشعرالجاهلي، إلى جانب بحوث ومقالات نشرت في مجلة الأزهر، ولواء الإسلام، والهداية الإسلامية...

2- الأثرالدعوي: ويتمثل أساسا في الحضور في الساحة الدعوية اشتغالا بالإصلاح وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر، بالإضافة إلى التنظير للعمل الدعوي وتحديد قواعد ورسم معالم نجاحه وكيفية استثمار نتائجه، وقد تميز من الجزائريين الذي انتسبوا للأزهر في هذا الشيخ محمد الخضر حسين فقد كانت له رؤية للعمل الدعوي هذه معالمها:

أولا: الحاجة إلى الدعوة.الحاجة إلى الدعوة وإلى العمل الإصلاحي أمر أصيل في الإسلام وحاجة الإنسان إليها نابعة من طبيعة الإنسان ونسبية أحكامه واختلاف مواقفه، ولذا ضبط وجه الحق بالشرع حتى لا يزيغ الإنسان، وهذه الطبيعة أشار إليها

الشيخ حسين قائلا:" وإن بلغت في الإدراك أشدها قد تنبو عن الحق ويغرب عنها وجه المصلحة ولا تهتدي إلى عاقبة العمل، وربما ألقت على الحسنة نظرة عجلى فتحسبها سيئة، وقد يتراءى لها الشر في شبه من الخير فتتلقاه بالقبول"[1] وبما أن الطبيعة الإنسانية هكذا هي متفاوتة كانت الحاجة إلى من يهذبها ويعمل على إبراز عناصر الخير فيها وعناصر الاتحاد كي تتحد المواقف والرؤى وكانت هذه مهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أولا ثم من بعدهم ورثتهم وهم العلماء المشتغلون بالإصلاح، ولذا يرى الشيخ حسين أن:" الدعوة الرشيدة من أفضل الواجبات وأحمد المساعي، وهذا ما يقضي على حكماء الأمة بأن يعدوا للدعوة ما استطاعوا من قوة"[2].

ثانيا: المبادرة إليها. بعد بيان طبيعة الحاجة إلى الدعوة يبين الشيخ حسين أن الدعوة دعوتان إحداهما المبادرة إليها واجبة على كل حال، وهي التي يرجى منها إنقاذ الناس من ضلالة؛ أي كانت ذات بعد عقدي وهي واجب من الواجبات مستدلا بقوله تعالى:" **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى**"(يس/20) مذكرا أن ما يستفاد من قوله تعالى:"**يسعى**" بأن ذلك:" تذكرة لدعاة الإصلاح وإيقاظ لهممهم كي ينفقوا في هذه الغاية وسعهم، ويسارعوا إلى النصيحة جهدهم" والثانية فهي مما لا ينشأ عن تأخيره حرج فإن كانت فسحة للقيام به جاز تأخيره وإلا وجبت المبادرة إليه[3].

ثالثا: طرقها. في طرق الدعوة يشير الشيخ حسين إلى طريقين اثنين: أحدهما الدعوة باللسان، والأخرى الدعوة بالقلم وكان يقول:"لكل منهما مقام هو أحق به من الآخر" [4]فالدعوة باللسان قد تكون فعالة مؤثرة إذا كان المقام مقام وعظ وخطابة، والدعوة بالقلم قد تكون مؤثرة إذا كان المقام مقام توعية وبيان، وتمتاز هذه الأخيرة كونها تصل إلى أبعد مدى فقد تصل الغائب والحاضر على حد سواء.

رابعا:عوامل نجاحها. يضع الشيخ حسين بعض الضوابط التي يرى فيها شروطا أساسية لنجاح الدعوة إلى الإصلاح يمكن إيراده فيما يلي:

1- الإخلاص:الإخلاص هو سلامة النية في الأعمال جميعا وهو شرط من شروط القبول عند الله عز وجل؛ فبالإضافة إلى الشروط الفقهية التي تقتضي موافقة الوجه الشرعي المطلوب، لابد من الإخلاص الذي يجب أن يتحلى به القائم بالدعوة، ولذا تقرر في الأدبيات الإسلامية:" **إن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصا صوابا**". يطرق الشيخ حسين شرط الإخلاص في الدعوة انطلاقا من تحديد غاية العمل الدعوي الذي هو الصلاح وانتظام شؤون المسلمين على منهاج السعادة؛ فمن كان هذا قصده أفلح وأثمر عمله، وإذا حاد عن هذه الغاية اضطرب في دعوته ولن

---

[1]- محمد الخضر حسين:الدعوة إلى الإصلاح، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، د، ط، (1346هـ)، ص 7.
[2] - المرجع نفسه، ص11.
[3]- المرجع نفسه ، ص21- 22.
[4]- المرجع نفسه ص، 43.

يوفق في بلوغ غايته مستدلا في ذلك بقوله تعالى:" **إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله"** (هود/88)، وهذا الإخلاص هو الذي يبتعد بصاحبه عن حظوظ النفس وطلب الدنيا، وهو الذي يجعله بعيدا عن المواقف التي تنتهك فيها العدالة، بل يغضب للحق حينما يطمس، ويرتاح للحقوق حينما تحفظ.كما أنه من مقتضات الإخلاص عدم التستر بدعوى الإصلاح لتحقيق المصلحة الشخصية، ولذا فقدان الإخلاص يكشف الضمائر المعتلة وذلك بتساقطها فور حصول أصحابها على ما يريدون، وهذه سنة إلهية ماضية، ولذا يرى الشيخ حسين ضرورة التمييز بين المخلص وبين متصنع الإخلاص بما يبثه الله في نفوس المؤمنين من فراسة ومن شواهد حسن السريرة، ولذا يكون المخلص في عملية الإصلاح من ينادي إلى الإصلاح ويصابر عليه، ولا ينثني له عزم عن الدعوة إلى الإصلاح ورغم ذلك لا ينعت باسم" **المصلح"** إلا إذا صفا منهجه واستقامت آراؤه، وكان زاده العلمي كافٍ ونظره في عمليات القياس والاقتباس نظرا ثاقبا[1].

2- التعاضد على الدعوة: وفي هذا يدعو الشيخ حسين إلى العمل الجماعي في مجال الدعوة إلى الإصلاح، فعلى الرغم من أن عمل الفرد قد يكفي في بعض الأحيان لقوله تعالى:" **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون"**(التوبة/ 122) رغم كفاية ذلك إلا أن الأثر الذي تحدثه الدعوة الجماعية لا يمكن أن تحدثه دعوة الفرد، وفي هذا قد يغني العدد القليل إذا تقاربت مشارب أفراد الجماعة القائمة بالدعوة. ويرى الشيخ حسين أن كثرة الدعاة عند اتحادهم وقصدهم إلى إقامة المصالح ونصرة الحقيقة في نفسها مأمور به، مستدلا في ذلك بقوله تعالى:" **ولتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"**(آل عمران/104) ولفظ الأمة هنا له دلالته فهو خلاف القوم فهم المجتمعون على الأمر الواحد يقتدي بعضهم بالبعض الآخر؛ فدلالة اللفظ من الائتمام، وأشار إلى أن اختيار لفظ الأمة للدعاة لإشعارهم بمعنى اتحادهم وتآلفهم أكثر مما يشعر به لفظ القوم، ولذا يجب التعاضد في العمل الدعوي؛ لأن العمل الفردي قد يؤول إلى الفشل، وهذا لا يعني إلغاءه لتفاوت ملكات الأفراد وقدراتهم على التواصل وعلى التأثير؛ فمن الدعاة من أوتي ملكة الجدل ومنهم من أوتي حسن الموعظة، ومنهم من يحسن بيان مكارم الشريعة، هذه الأعمال قد تثمر فردية لكنها إذا تكاملت كان أثرها أبلغ ونتائجها أعظم[2].

---

[1]- المرجع نفسه، ص37 وما بعدها.

[2]- المرجع نفسه، ص23وما بعدها.

3- من يقوم بالدعوة؟.وهذا ضابط آخر من ضوابط نجاح الدعوة الإصلاحية وهو اختيار القائمين بها؛ فمن شروط نجاح الدعوة إلى الإصلاح إختيار القائمين عليها، وهذا يعني ضرورة انتقاء الدعاة وضرورة اتصافهم بمواصفات معينة تؤهلهم للانخراط في العملية الدعوية ومن هذه الصفات التي أشار إليها الشيخ حسين:

أ- الجهر بالحق: أي يحب أن يتحلى الداعية المصلح بالشجاعة وبالجرأة في المجال الدعوي لا يخشى في الله لومة لائم، وقد ركز الشيخ حسين على هذه الخصلة مستندا في ذلك إلى نصوص القرآن الكريم كقوله تعالى:" **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**"(العصر/3) وقوله صلى الله عليه وسلم:" **من رأى منكم منكرا فليغيره**" بالإضافة إلى ما كان عليه السلف عليهم الرضوان في جهرهم بالحق في وجه الأمراء والخلفاء لا لشيء إلا لأنه الحق الذي أقره الدين.

ب - العلم: القائم بأمر الدعوة يجب أن يكون على قدر من العلم يؤهله لهذه المهمة الجليلة التي هي مهمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولذلك يجب أن يكون على بينة من حكم ما يأمر به أو ما ينهى عنه، وهذا يقتضي حدا أدنى من العلم به يتمكن به الداعية من الاستدلال على أن المنكر منكرا وأن المعروف معروفا، وبذلك يحسن تبليغه لقوله تعالى:" **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**"(النحل/125).

ج - الصلاح:أي يجب أن يكون الداعية صالحا في نفسه؛ لأن الدعوة الإصلاح إصلاح فإن لم يكن الداعية غير صالح ففاقد الشيء لا يعطيه كما يقال، ولهذا يرى الشيخ حسين أن الداعية يجب أن يكون صالحا في نفسه مستقيما في سيرته، وهو شرط صحيح لانتفاع الناس بإرشاده، كما أن المدعو يرى في الداعية قدوة له ولذا ينقاد لموعظته، ويستدل على هذا الشرط بما كان عليه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما جاء في القرآن الكريم:" **وما أريد أن أخالفكم غلى ما أنهاكم عنه**"(هود/88)، وقوله تعالى:" **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**"(البقرة/44).

د - عدم حصرها في فئة خاصة: الدعوة إلى الإصلاح عمل وخدمة للدين وهي في ذمة كل مسلم ولذا يرى الشيخ حسين أنها ليست حكرا على شيوخ الدين كما هو الأمر في التصور السائد عند العامة، إنما في إمكان كل مسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انطلاقا من الوضع الذي هو فيه، كما أنها ليست خاصة بفئة الحكام دون الرعية بل هي منوطة بهم جميعا[1].

[1]- المرجع نفسه، ص 29 وما بعدها.

خامسا: وسائل الدعوة. ينظر الشيخ حسين إلى أن الدعوة إلى الإصلاح إن أريد لها أن تكون دعوة ناجحة لابد لها من أدوات يستعان بها على خدمة هذه الدعوة وإنجاحها ومن هذه الأدوات التي يرى الشيخ حسن ضرورتها:

1- الأدب. ينطلق الشيخ حسين في نظرته إلى وجوب الكفاءة اللغوية والأدبية على أنها وسيلة من وسائل الدعوة الضرورية ينطلق في ذلك من نظرته إلى طبيعة النفس البشرية، فإذا كانت الدعوة هي أخذ بالنفس البشرية من درك الغواية إلى أفق السعادة والكمال فهذه العملية ليست بالشيء السهل ومن مقتضيات مخاطبة النفس على طبيعتها الأصلية الكفاءة الأدبية التي تمكن الداعية من صناعة البيان الذي يحدث التأثير كمقصد دعوي، ووعيا بهذه الطبيعة البشرية وبالتنوع الثقافي الذي هو من خصائص المجتمع الإنساني يقول الشيخ حسين:" لا يكفي في الدعوة أن يكون في يد القائم بها حجة أو موعظة يلقيها في أي صورة شاء، فإن المخاطبين يختلفون ذوقا وثقافة اختلاف الزمن والبيئة، ومن اللائق أن تصاغ دعوة كل طائفة في أدب يليق بأذواقها أوثقافتها" [1].

2- السياسة. ويراد بذلك سياسة الدعوة وحسن القيام بها وذلك يقتضي في نظر الشيخ حسين النظر في أحوال الجماعات ودراسة سنن الله فيها وكيف تساس النفوس الجامحة، ويرشد الشيخ حسين إلى محددات عامة لهذه السياسة الدعوة فيقول بالميل إلى الدعوة في السر قبل العلن، وأن يبدأ الداعية في دعوته بالأمور اليسيرة قبل العظيمة وقد استقى الشيخ هذا البند من التدرج في التشريع كما هو في الشريعة الإسلامية، وأن لا يقابل السيئة بالسيئة بل بالحسنة وهو ضرب من الكرم، ومن حسن السياسة عدم الجهر بالرأي الصريح في صدر المقال إنما يهيئ المدعوين لما أراد أن يبلغهم به، من السياسة أيضا أن يسكت الداعية عن بعض ما يكون حقا إذا لم يكن في الإمكان ذلك، من أهم ما ينبغي أن يكون في سياسة الدعوة أن يسبق الداعية إلى العمل قبل القيام بالأمر، وهنا إشارة إلى القدوة وأثرها في العمل الدعوي، وكذا بسط المعروف في وجه المفسدين والجاهلين وتهيئتهم للتلقي، مستدلا في ذلك بالمؤلفة قلوبهم كما هو مقرر في فريضة الزكاة[2].

سادسا: السكوت عن الدعوة.الدعوة إلى الإصلاح واجب شرعي وضرورة حضارية من وجهة النظر الإسلامية، وهي أمر ماض ما دامت الحياة وهذه الضرورة هي التي كان عليها علماء الإسلام في القديم والحديث ومنهم الشيخ حسين الذي كان يقول بوجوب القيام بها ويحذر من الآثار السيئة الناتجة عن تركها مثل:

---

[1]- المرجع نفسه، ص 49 وما بعدها.

[2]- المرجع نفسه، ص86.

1- الإعراض عن الحق: طبيعة النفس الإنسانية إن لم تشغل بالحق شغلت بالباطل ومن أوجه انشغالها بالحق التذكير الذي يكون بالدعوة، والسكوت عن المنكر وعدم القيام بالمعروف يجعل الفاسدين يركنون إلى الإعراض عن الحق فلا يقبلون عليه لذا كان الشيخ حسين يقول:"يقبل عليهم الحق بنوره الساطع ووجهه الجميل فتجفو منه طباعهم وتجفوه آذانهم لأول ما يشرف عليها" وهذا الإعراض قد يتراكم فيغدو قطيعة مع الدين وبعدا عنه لأنهم نسوا ذكر الله فأنساهم الله أنفسهم.

2- فساد الأخلاق: فساد الأخلاق من فساد دين أصحابها لأنه كما جاء في الحديث النبوي:" **الدين حسن الخلق**" والدعوة إلى الإصلاح تذكير بمحاسن الأخلاق والدعوة إلى الأخذ بها والصبر عليها، وإذا ما تم التخلي عن الدعوة إلى الأخلاق تنبت الفئات التي تعمل على القضاء على الأخلاق الفاضلة والنظم الحكيمة باسم الجديد والقديم وتصل إلى إيذاء الأمة.

3- إيــذاء الأمــة: وهو أثر حضاري عام، فترك الدعوة يفتح الباب أمام أعداء الأمة لأن يتطاولوا عليها وعلى تاريخها وعلى مكتسباتها والطعن في شريعتها، وتمزيق رابطة الألفة وتصدع بناء الوحدة، وتكون المشاغبة على الأقلام والأفكار البناءة التي تكون لبنات جهاد في سبيل خلاص الأمة[1].

وحتى يتم تحاشي عملية ترك الدعوة إلى الإصلاح يحصي الشيخ حسين أسباب ترك الدعوة وذلك لأن معرفتها تمكن القائمين عليها من تجاوزها وهي:

المداهنة التي يقع فيها بعض الدعاة وتؤدي بهم إلى السكوت على المنكر، ومنها قلة الصبر الذي يُورِّثُ يأسا في نفس المصلح فيركن إلى ترك الدعوة، ومنها الاستبداد الذي يظهره بعض الحكام فيجمح بهم عن الحق الأمر الذي يورث في نفس المصلح خوفا يترتب عليه ترك الدعوة،كما أن شخصية العالم الذي قد يبلغ به ورعه مبلغا يجعله يفرط في الواجبات، وقد يكون ذلك مخافة الوقوع في الرياء فيصبح علة من علل إهمال الدعوة، من عوامل الإهمال أيضا في نظر الشيخ حسين المتلقي الذي يجابه الداعية باللامبالاة؛ الأمر الذي يورث يأسا في نفس الداعية فيهمل الدعوة للأسف هذا السلوك شاعر كثيرا في عصرنا، من العوامل أيضا ما يمكن أن يقع من عداوة بين المصلح والمدعوين فيمسك لسانه عن نصيحتهم ويرى الشيخ حسين هذا السلوك تهاون في واجب النصيحة، كما أن الداعية إذا كان رقيق القلب تتولد لديه الشفقة على المدعو فتكون شفقته فيها إفراط يهمل به الدعوة.

مما سبق من معالجة الشيخ محمد الخضر حسين للعملية الإصلاحية يستشف أنه كان يملك رؤية إصلاحية لها مقوماتها وفقهها يمكن أن تستثمر في ترشيد التجارب

[1]- المرجع نفسه، ص83 وما بعدها.

الإصلاحية التي تتأسس هنا هناك وليتحقق بذلك التكامل الإسلامي في فضاء العمل الإصلاحي في مختلف المحطات التي تمر بها الأمة في صناعة تاريخها الديني.

3- الأثر التعليمي: يَسّر الانتماء الأزهري وما صاحبه من تحصيل علمي للجزائريين الانخراط في الحركة التعليمية داخل الجزائر وخارجها ففي خارج الجزائر ساهم الشيخ يحي الشاوي في العمل التعليمي في مصر والشام وتركيا ففي مصر وبحكم مذهبيته المالكية أوتي له تولى إفتاء المالكية هناك، كما أن رصيده المعرفي وتحصيله أهلاه لتولى التدريس في الجامع الأزهر[1]. فقد درّس في الأزهر عدة علوم مثل: الفقه، النحو، التوحيد، المنطق، درس مختصر خليل في الفقه المالكي، وفي النحو درس شرح المرادي على ألفية بن مالك، وفي التوحيد درس شروح السنوسيات، ودرس في المنطق الجمل للخونحي. وبذلك كان انتماء يحي الشاوي كعلم جزائري إلى الجامع الأزهر انتماء متميزا؛إذ انتمى إليه متعلما ثم معلما بعد ذلك.

وبعد مصر رحل الشاوي إلى تركيا وفي طريقه أقام بدمشق وتولى التدريس أيضا بالجامع الأموي، وذاع صيته بدمشق واشتهر مجلسه حتى صار مجلسا علميا مشهورا، واجتمع حوله علماء دمشق وشهدوا له بالفضل ومدحه شعراؤها، وطلب منه طلاب العلم الإجازة، ومن الذين برزوا على يده من التلاميذ في دمشق المحبي صاحب خلاصة الأثر.

وبعد دمشق واصل رحلته إلى تركيا التي كانت هدفه الأول، وصار يحضر الدرس الذي يحضره السلطان باسطنبول وشارك في المباحث التي كانت تعرض في ذلك المجلس الأمر الذي أتاح له أن يشتهر بالعلم بين أهل اسطنبول، فلفت الأنظار وذاع صيته بين علمائها حتى قربه السلطان منه، وهكذا تكررت زياراته إلى اسطنبول حتى جلس للتدريس فيها وتولى تدريس عدة علوم إسلامية خاصة التوحيد والتفسير والنحو. وكان حينما يخرج من اسطنبول لا يعود إلى وطنه الأم - الجزائر - بل يعود إلى مصر وكلما عاد من تركيا إلى مصر يتولى مهمة التدريس من جديد ، فبعد عودته الأولى من تركيا إلى مصر قام بالتدريس في بعض المدارس المصرية غير الجامع الأزهر، ثم عاد إلى تركيا مرة أخرى فأكرم أيما إكرام أنزله أحد أصحاب السلطان في بيته[2]. ثم عاد إلى من تركيا إلى مصر مرة أخرى، وفي هذه

[1]- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص110.
[2]- الحفناوي: تعرف الخلف برجال السلف، ج1، ص223.

المرة صرف وقته للتأليف والتدريس، ومضى على هذه الحال إلى أن توفاه الله عز وجل ،[1].

كما أن الشيخ المولود يعد أحد صناع الحركة التعليمية في الجزائر فقد اشتغل بعد عودته من مصر بالتعليم في المدرسة الشرعية الفرنسية التي كان افتتاحها سنة 1851م بقسنطينة؛ أي بعد خمسين عاما من الاحتلال الفرنسي للجزائر والتي كان هدف الاستعمار تكوين جيل من الجزائريين موال لفرنسا إلا أن المدرسين الجزائريين سخروا جهدهم لخدمة قضايا الإصلاح ومن المتخرجين منها مالك بن نبي. وهو الذي كان يقول عن معلمه المولود الزريبي: بعد أن تأثر بما قرأ للكتاب الفرنسيين أنه كاد وا أن يأخذوا به لولا دروس التوحيد والسيرة التي كان يقدمها الشيخ مولود[2]

وهكذا نجد الانتماء الزهري للجزائريين قد أثمر في فضاءات عديدة شكلت بكفيفة أو بأخرى نوعا من التفاعل العلمي والديني بين الجزائر ومصر خاصة فيما أنتجه الجامع الأزهر من معارف وما كون من طلبة صاروا علماء خدموا بلادهم خاصة وبلاد الإسلام بشكل عام.

خاتمـــة:

مما سبق من عرض نماذج من سير الطلبة الجزائريين وكيف انتموا إلى الأزهر تلاميذ وطلبة وكيف أنهم بونوا مسارا علميا جعل منهم علماء في جيلهم بما كتبوا وبما عملوا ميدانيا من خلال ذلك يمكن تسجيل النتائج التالية:

1- إن التفاعل الجزائري المصري تفاعل قديم وإن كان محدودا بفعل الطبيعة الاجتماعية القديمة التي لا تتيح الفاعل كما أتاحته العصور الحديثة وهذا بحكم الشهرة التي حققتها الحضارة المصرية القديمة وبحكم الانتماء الإفريقي للبلدين.

2- وصول الإسلام إلى مصر وبعدها بلاد المغرب التي منها الجزائر أتاحت التواصل والتفاعل أكثر فبالإضافة إلى الانتماء الجغرافي تبلور انتماء آخر هو

[1]- المرجع نفسه، ص225/224.
[2]- مالك بن نبي: مذكرات شاهد للقرن، ص66.

الانتماء الديني ، وبالتالي صار التقارب المصري الجزائري ينطوي على بعد آخر هو البعد الديني العقدي.

3- شكل الجامع الأزهر كمؤسسة دينية ودعوية عامل تفاعل بشكل متميز بين الجزائر ومصر، فقد كان تأسيس هذا الجامع جزائري إذ أسسه المعز لدين الله الفاطمي وهو من الجزائر، وأوتي لهذا الجامع أن يكون من أرقى الجوامع الإسلامية وأكثرها تأثير في مسار التعليم الديني ةالدعوة الإسلامية، وقد ساهم عبر تاريخه الطويل تعليم الإسلام ونشره في أقطار الدنيا، واستفادت منه أقطار كثيرة منها الجزائر في القديم وحتى في الحديث في عهد الاستقلال.

4- ساهمت سمعة الجامع الأزهر في تكوين رغبة الذلبة الجزائريين في تحصيل العلم الشرعي، ولالحصول على شرف الانتماء إلى هذا الجامع العامر، فرحل الكثير من الطلبة وانتسبوا إلى الأزهر وتحصلوا منه على شاهادات وبذلك يثبتون انتماءهم إلى هذه المؤسسة العريقة.

5- مكن الانتماء الأزهري للجزائريين أن ينخرطوا في الحركة العلمية في مختلف الأجيال وأحدثوا ما أحدثوا من آثار علمية ودعوية وتعليمية وحضارية عامة، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على متانة التكوين والوعي بالرسالية التي تشكل نوعا من تفاعل الجزائريين مع الجامع الأزهر كمؤسسة إسلامية مصرية.